الفتوة عند العرب

تأليف الأستاذ عمر الدسوقي

للأستاذ إبراهيم الوائلي

الأديب ومضة من ومضات الحياة تلألأ خلال الظلام وتبعث أضواءها في طريق الركب ليسير على هدى ووعى. والأديب هو ابن بيئته وأمته ومجتمعه، ورسالته في الحياة رسالة عامة لا تقف عند حدود المذاهب الضيقة، وليست رسالة الأديب هي التي تنبع من نفسه وتعيش في نفسه فقط، سواء أكان شاعرا أم كاتبا قصاصا أم مؤلفا، وسواء أكان يستوحي الماضي البعيد أم الحاضر المشاهد، وإذا كان الإنتاج الفكري هو ما يتصل بالحياة العامة ويواكب المجتمع فإن ما عدا ذلك إنتاج عائم يطفو كما يطفو الطحلب على سطح الماء؛ حتى إذا مرت به العاصفة ذاب وتلاشى. لهذا يجب أن يكون الأديب والمفكر كذلك؟ لأننا الآن عبيد أرقاء لا نملك من أمرنا شيئا، ويجب أن نعيش أحرارا نتصرف في حياتنا وشؤوننا كما يتصرف البشر في حياتهم وشؤونهم، وعلى كل أديب عربي ومفكر عربي أن يكون في رأس القافلة ليشارك في معالجة أوضاعنا معالجة واقعية، وإلا كان أديبا تافها ومؤلفا سطحيا لا يفكر ولا يحس، أو يفكر ويحس ولكنه ضعيف الاندفاع مشلول الحركة. وكلتا الحالتين لا تؤدي إلى غاية ولا تصل إلى هدف

وإذا كان الشأن كذلك فما هي قيمة كتاب «الفتوة عند العرب»؟ وفي أي اتجاه يسير؟

قبل أن أتحدث عن الكتاب أحب أن أشير إلى صاحبه. وصاحبه هو أستاذنا عمر الدسوقي أستاذ الأدب العربي في كلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول. لقد اتصلت بالأستاذ الدسوقي عن كثب، وتحدثت إليه كثيرا وتحدث إلي كثيرا، فلمست فيه ما لم ألمسه إلا في القليل ممن عرفتهم. لمست فيه روح القومية العربية، والاعتزاز بالعرب اعتزازا يكاد يصل إلى درجة الغلو، وأحسبه على حق فيما يعتقد، فما كان العرب في ماضيهم وتاريخهم العريق أمة تافهة لا شأن لها، وإنما كانوا سادة أنفسهم، وأسياد غيرهم، ولكنهم فقدوا أهم مميزاتهم يوم أتيح للعناصر التي اندست في صفوفهم أن تتحكم وتسود، فرقدوا شر رقدة تحت مطارق العبيد والمماليك والأفاقين. حتى إذا أريد لهم التخلص من هؤلاء كانت يد أخرى تستقبل الكرة لتلقفها فإذا بالعرب يخضعون خضوع العبيد لمستعمر آخر وسادة جدد وبقايا من أولئك العبيد والمماليك والأفاقين، حتى كاد يكفر المتعلمون من العرب - الآن - بعروبتهم وتاريخهم، وحتى أشاح بعض هؤلاء المتعلمين بوجهه عن تاريخ العرب وتراثهم، مندفعا وراء الغرب في كل شيء؛ وحتى أصبحنا الآن في بلبلة فكرية وقومية نتيجة للاضطراب السياسي والشعور بالخيبة من يقظتنا الأخيرة، وليس لذلك من سبب إلا لأن الدم العربي قد كدر وتجمد، والنفس العربية الأصيلة قد حقرت وضعفت، فلم يعد ذلك الدم الفوار، ولا تلك النفس الثائرة الجامحة

بمثل هذا الشعور والإحساس يندفع الأستاذ الدسوقي إلى استيحاء الماضي البعيد ويضع كتابه «الفتوة عند العرب» فيقص علينا من جديد تاريخ ذلك العنصر العريق من زاوية واحدة لعلها أهم الزوايا لمن يريد أن يتحدث عن العرب، وهي زاوية الفتوة وما يتصل بها من مظاهر متشعبة تلتقي عند نقطة واحدة وإن تعددت من الأشكال والألوان

يقص علينا تاريخ العرب في فروسيتهم وشجاعتهم ونخوتهم وكرمهم، ويعرض علينا ألوانا من الأشخاص الذين كان لهم شأن في الحياة العربية، الجاهلية والإسلامية، وألوانا من الشعر الذي يمثل تلك الحياة في أجمل مظاهرها

ويتحدث - بعد المقدمة التي تشير إلى الحافز على تأليف الكتاب - عن الفتوة في معناها اللغوي، وعن الفتوة في العصر

الجاهلي ، ومظاهر هذه الفتوة في الشجاعة والكرم : كرم اليد التي لا تعرف البخل وإن لم تجد شيئا ، وكرم القلب الذي يتسع للكبير والصغير ، وكرم العقل الذي لا يعرف البلادة والتقليد . بل العقل الذي يزن ويحكم ويفكر ، ويرى العقل الذي عبد الأصنام ثم حطمها حين رأى أنها حجر لا يضر ولا ينفع . وفي حماية الضعيف : الجار والمستغيث والأسير ، والمرأة قربت أم بعدت

وحين ينتهي من العصر الجاهلي يتحدث عن العصر الإسلامي والدعوة الإسلامية ، والكفاح في سبيل هذه الدعوة ، والرجال الذين ضحوا من أجلها وزعيمهم فيها (سيد الفتيان) محمد (ص) . ولا ينسى أن يتحدث عن المرأة العربية في عنايتها بولدها وتنشئته على العروسية والشجاعة والخلال التي يتصف بها أبوه أو خاله ، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة وشواهد من الرجز النسائي في ترقيص الفتيان

وعندما ينتهي من هذا العرض التاريخي الذي يغلب عليه طابع الحماسة والإعجاب ؛ ينتقل بنا إلى فصل آخر يكاد يكون من التأريخ المجرد وإن تخللته أحيانا لمحات من التحليل والموازنة ، ينتقل بنا إلى الصوفية ، فهو يمجدها حينا لأنها كانت رد فعل لحياة الترف والمجون التي انغمس فيها المسلمون أيام الدولة العباسية ، ويهاجمها حينا آخر لأنها آثرت الزهد في الحياة على الكفاح والنضال ، ثم يستعرض الفتوة عند بعض المتصوفين وشيئا من تأريخهم ، وكنت أود ألا يشير إلى بعض أعمال الصوفية ، أو بالأحرى أعمال بعض الصوفية ، فإن الكتاب دروس أمليت لتمس حياة العرب في عصرهم الحاضر وتذكرهم ماضيهم المتيد . ولم يكن من الهين علينا أن نعيد ما سجله بعض المؤرخين من فتن ومشاحنات استغلها وأثارها رجال السياسة الذين يريدون أن يحكموا بأية وسيلة من وسائل التفريق ، معتمدين على فتاوى المعممين وأصحاب الربط والتكايا من الدراويش المتنطعين

ولنتجاوز هذا الفصل إلى فصل آخر وهو فتوة « المترفين » وتتجلى هذه الفتوة في الصيد والرماية ، وأصحاب هذه الفتوة من أرباب الثراء والجاه ، وأبرز مظاهر هذه الفتوة في عهد زعيمها الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢ هـ وكان لابد من أن يتسلل الحديث في هذا الفصل إلى الأيوبيين الذين طلب منهم الناصر أن ينتظموا في سلك فتيانه ، ثم المماليك الذين جاءوا بعدهم وما كان من شأن هؤلاء في محاربة الصليبيين نتيجة لتعلقهم الرماية والصيد ، وكأنه أراد بهذا الفصل أن يجعل من فتوة الناصر لدين الله مدرسة تخرج فيها من جاء بعده من هؤلاء ، كما كانت مدرسة النبي الكريم ، إذا كان لابد من التشبيه

وينتقل بعد هذا إلى الفروسية عند الغربيين ، ويوازن بينها وبين فتوة العرب ، ويعزو أكثر مظاهرها الجميلة إلى الاقتباس من العرب أيام الحروب الصليبية وفي عهد الأندلس ، ويدعم رأيه بالأدلة المادية الكثيرة

ثم يختم الكتاب بطائفة من الصور لفتوة العرب ، وهنا ينتقل بنا من الاستعراض التاريخي إلى الأسلوب القصصي ، فيعرض لنا هذه الصور في إطار جذاب وخيال مبدع ، يدفعنا إلى آفاق تمتد بامتداد الصحراء العربية وما فيها من خصائص ومميزات طبعت العربي على تلك المزايا التي تحدث عنها الكتاب في بدايته . ولا يسعني أن أتحدث عن هذه الصور في كلمة قصيرة مثل هذه ، بل أدعها لمن يريد أن يستمتع بها ويتملاها كما أتيح لي ذلك

هذا هو الكتاب بوصفه الموجز ، وهو وصف لا أظنه يستطيع أن يتحدث كما يجب عن (٤٧٢) صفحة دعمت بالمصادر الكثيرة من عربي وأجنبي ومجلات ، فيها وفرة الاطلاع فجاءت تشق طريقها من أعماق التأريخ إلى حيث تقف القافلة الآن

فهل نستطيع بعد هذا أن نقول : إن الكتاب من العرب في أقدم عصورهم وإلى العرب في عصرهم الحاضر ؟ وهل نستطيع بعد هذا أن نقول : إن الكتاب درس من دروس القومية العربية لمن يهتمون بالقومية ؟ أظننا نستطيع أن نقول ذلك عندما نتجاوز تلك الهوة التي فصلت بين قمتين من قمم الكتاب ، وهي هوة الصوفية ، وقد اندست هذه الهوة تفرض نفسها بين القمتين بإيحاء من المنهج التأريخي حسب ، كما اندست في حياة العرب فكانت أكبر مخدر تسمم به ذلك الجسم الفارع السليم

ابراهيم الوائلي

ديوان علي بن الجهم

جمع وتحقيق العلامة خليل مردم بك

للاستاذ عبد القادر رشيد الناصري

تفضل صاحب المعالي شاعر الشام الأستاذ الجليل خليل مردم بك سكرتير المجمع اللغوي بدمشق فأهدى إلى نسخة من ديوان علي بن الجهم الذي بذل جهداً مشكوراً في جمعه وشرحه وتحقيقه، ونسخة أخرى من ديوان الشاعر السوري الرقيق الملقب « بالوأواء الدمشقي » الذي قام بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور الفاضل سامي الدهان. وكلا الديوانين كان آية في إناقة الطبع. ودقة الشرح . . وقد صرفت — رغم مشاكلي — وقتاً غير قصير حتى قلبتها دراسة وتمحيصاً، ويسرني أن أقدم في هذه الكلمة المتواضعة رأيي في الديوان الأول لقراء الرسالة الغراء هنا وهناك، على أن أعود إلى الديوان الآخر في فرصة أخرى

يقع ديوان علي بن الجهم في ٢٢٣ صفحة من القطع الكبير وتقع الدراسة التي كتبها الأستاذ مردم بك عن الشاعر في ٤٧ صفحة. وهي دراسة شاملة جامعة، تطرق فيها الشارح إلى عصر الشاعر ونشأته وشعره، ودراسته والظروف التي أحاطت به حتى مقتله ووفاته. وليس لي اعتراض على كل ما قاله الأستاذ مردم بك، إلا إن الذي لفت نظري في هذه الدراسة الرواية التالية . .

قال الشارح في الصفحة « ٥ » من المقدمة « ولما بلغ السن التي يذهب بها الصغار إلى الكتاب، بما يذهب كل يوم من داره في شارع « دجيل » ببغداد إلى كتاب في الحي يجمع بين صغار الصبيان والبنات. وكان على حسن الوجه ذكي الفؤاد كثير النشاط. ظهرت عليه مخايل النجابة منذ طفولته، فكان يسمر البيت وثبا وقفزا ولعبا وضجيجا، حتى أقلق والده بضوضائه وجلبته، فسأل أبوه معلم الكتاب يوما أن يحبسه في الكتاب، فلما رأى على رفاقه ينصرفون إلى دورهم؛ وهو محبوس، ضاق صدره فأخذ لوحته وكتب فيها إلى أمه

يا أمتا أفديك من أم أشكو إليك نظاظة « الجهم »
قد سرح الصبيان كلهمو وبقيت محصورا بلا جرم

وبعث باللوح إليها مع رفيق له من الصبيان . قال علي « وهو أول شعر قلته وبعثت به إلى أمي، فأرسلت إلى أبي : والله لئن لم تطلقه لأخرجن حاسرة حتى أطلقه »

ومن حوادثه في الكتاب أن أخذ لوحه يوما وكتب فيه إلى بنت صغيرة كانت معه

ماذا تقولين فيمن شفه سهر من جهد حبك حتى صار حيرانا

وأن البنت الصغيرة أخذت وكتبت تجيبه .

إذا رأينا محبا قد أضر به جهد الصبابة أوليناه إحسانا

وهكذا بدأ يقول الشعر وهو صغير جدا، ولعله كان دون عشر سنوات من عمره

فهذه الرواية التي يوردها الأستاذ مردم بك نقلا عن طبقات الشعراء لابن المعتز والأغاني ومختصر طبقات الحنابلة أشك في صحتها بالرغم من المصادر التاريخية التي اعتمد عليها الشارح، وشكي يقع على سن الشاعر حين نظمه الأبيات المتقدمة، وهي العشر سنوات . إذ أن من المحال أن يستطيع طفل دون البلوغ أن يقول شعرا منظوما موزونا فيه معنى بصياغة عالية .. ومهما يكن ذلك الطفل ذكيا فلا يتسنى له الإجادة في تلك السن المبكرة، لأن الشعر موهبة وصنعة تحتاج إلى حذق ومران . ولدي شواهد كثيرة من أن فحول الشعراء ما نظموا الشعر الجيد قبل العشرين أبدا .. وقبل الاطلاع على نفائس الشعر القديم وحفظه . لأن حفظ الشعر الجيد يربي الملكة ويقوي القابلية ويعصم الناظم من الاختلاف في وزن الشعر، وقد كنت أود لو أن معالي الأستاذ حين إيراده هذه الرواية أن يعلق عليها بالشك، رغم ورودها في المصادر الآنفة الذكر .

ولا أظن أن هذا الاعتراض البسيط، يحط من قيمة الديوان

أو من الجهد الجبار الذى بذله الشارح حين مراجعته لعشرات الكتب لتحقيق بيت أو إثبات كلمة . فهو جهد يستحق عليه كل تقدير وإجلال . كما أننى معه عند شكه فى نسبة القصيدة المنشورة فى صفحة ٤٨ من الديوان والتى مطلعها .

سل الدمع عن عينى وعن جسدى المضنى
وهل لقيت عيناى بعدكم غمضا

إلى على بن الجهم لاختلافها عن أسلوبه ونفسه ، وخصوصا لما فيها من ذكر القيروان كما جاء

وإنى أرى بالقيروان أحبتى
وأعتاض من ضنك متيت به خفضا

ومدحه لأبى مروان

بحبل أبى مروان أعلقت عروتى
وحسبى إعلاق صريح العلا محضا

ولا أشك مثله أنها موضوعة عن لسانه، لأن القارئ لا يشعر فيها بالعاطفة الجياشة التى يشعر بها عادة عند قراءته شعر ابن الجهم وخصوصا قوله فيها

أقول وقد عيل اصطبارى من النوى
وأسبح دمع العين للشوق مرفضا
كما قال قيس حين ضاق من الهوى
فلم يستطع فى الحب بسطا ولا قبضا
« كأن بلاد الله حلقة خاتم
على فما تزداد طولا ولا عرضا »

فهذا شعر صناعة ، وهو أشبه ما يكون بشعر شعراء الفترة المظلمة ، كما أننى مثله فى أن القطعة الأخيرة المنشورة فى صفحة (١٩٦) للجاحظ لا لعلى بن الجهم وها هى

يا نورة الهجر جلوت الصفا ... لما بدت لى ليفة الصد
يا مئزر الأسقام حتى متى ... تنقع فى حوض من الجهد
أوقد أتون الوصل لى مرة ... منك بز نيل من الود
فالبين قد أوقد حمامه ... قد هاج قلبى مسلخ الوجد
أفسد خطى الصفا والهوى ... نخالة الناقض للعهد

وهو أشبه ما يكون بشعر أصحاب الحمامات منه بشعر شاعر له منزلة عالية لدى الملوك كعلى بن الجهم .

هذه كلمة بسيطة أكتبها عن هذا الديوان الذى لولا جهود مردم بك لم يحظ قراء العربية به . إذ أن شعر ابن الجهم لم يجمع قبل الآن؛ ولولا الأستاذ خليل ما أتيح له أن يكون بين أيدينا، وخصوصا وأن أكثر قراء العربية لم يقرأوا من شعره إلا بعض الأبيات منثورة فى بطون الكتب، منها القصيدة المشهورة الملحقة بآخر الديوان والتى مطلعها

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لى الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمرا على جمر

وهى قصيدة عامرة يذكرنى أسلوبها القصصى المشع بأسلوب عمر بن أبى ربيعة فى أقاصيصه الشعرية، ولعله نظمها تأثرا به حيث يقول

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها
لجارتها : ما أولع الحب بالحر
فقالت لها الأخرى فما لصديقنا
معنى وهل فى قتله لك من عذر

الخ الحديث بينه وبين صاحبته وجارتها حتى يتخلص منها إلى مدح المتوكل

ولكن إحسان الخليفة جعفر
دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر

هذا ما عنانى كتابته عن هذا الديوان، شاكرا للعلامة مردم بك هديته الثانية، ومقدرا الجهود التى يبذلها أعضاء المجمع العلمى العربى فى سبيل إحياء التراث العربى ، وعاتبا أشد العتب على صديقى الأستاذ الكبير محمد بهجت الأثرى سكرتير المجمع العلمى العراقى على الكسل الذى لازمه ولازم أعضاءه ، فالمجمع وقد مرت على تأسيسه سنوات لم يحقق ولم يطبع كتابا يستحق الذكر، مع أن ميزانيته لا تقل عن أى مجمع عربى آخر . . والذنب فى كل ذلك يعود إلى الانتخاب الخاطئ الذى جرى بين أعضائه

بغداد — عبد القادر رشيد الناصرى